الحرمان الشريفان

أ . د . محمود محمد مزروعة

إن الحديث عن الحرمين الشريفين يقتضينا أن نتناول أمورا يمكن أن نوجز أهمها فى مطالب

المطلب الأول : الحرم فى اللغة

ورد فى اللغة « الحرم » و« الحرم » بكسر فسكون ، وبفتحتين . وكذا « الحرام » : نقيض الحلال ، وجمعه « حرم » بضمتين ، والحرام والمحرم والمحارم : ما حرم الله – تعالى – . والحرمة بضم فسكون ، والمحرمة بفتح الراء والميم الثانية ، أو بضم الراء وفتح الميم الثانية : ما تجب رعايته ولا يحل انتهاكه ، والحرمات كذلك ، وهى جمع حرمه ، كظلمة وظلمات ، قال – تعالى – : { ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه } (١) .

وحرم الرجل وحريمه : عياله ونساؤه ، ومايقاتل عنه ويحميه من أعراض وأموال ، وهى المحارم ، واحدتها محرمة بفتح الراء وضمها ، وحرم الدار ما أضيف إليها وكان من مرافقها وحقوقها .

ومادة الكلمة وهى الحاء ، والراء ، والميم ، تدور كلها حول المنع والحجر ثم الحماية. وليست الحماية منها وإنما من لوازمها ، فإنه ما من ممنوع إلا وهو فى حاجة إلى قيام على حمايته وإلا استبيح واستحل .

* * *

والحرم والحرمة والحرام تصدق فى أمور أربعة :

أولاً .. المكان كحرمة الدور والمرافق ، وهى حرمة خاصة ، وحرمة الحرمين الشريفين ، وهى حرمة عامة . قال – سبحانه وتعالى – :

{ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرَّمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين } . (٢)

الثانى .. الزمان . وذلك كحرمة اتيان الرجل المرأة زمان قرءها ، وهى حرمة خاصة بحال كل امرأة على حدة ، وحرمة الأشهر الحرم ، وهى عامة وثابتة ، قال – سبحانه وتعالى – :

{ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم } (٣) .

الثالث .. النفوس والأعراض . فهى حرام لا يحل انتهاكها أو الوقوع فيها بقتل أو زنا أو قذف . قال – تبارك وتعالى – :

{ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا } (٤) .

وقال – سبحانه – :

{ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق } (٥) .

وقال – سبحانه – :

{ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم } (٦) .

الرابع .. الأموال والممتلكات . فهى حرام على غير مالكها . قال – تعالى – :

{ يا أيها الذين امنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما } (٧) .

وهذه الإمور كلها هى مما حرم الله – تعالى – وحرم رسوله – صلى الله عليه وسلم – فهى حرام ، ولها ضوابطها الحادة لها ، وأحكامها المبينة لحدودها من دين الله – سبحانه – .

واهتمامنا فى هذا البحث الموجز مقصور على الحديث عن الحرمين الشريفين :

الحـــــرم المـــكى .

الحـــــرم المـــدنى .

شرفهما الله – تعالى – .

* * *

المطلب الثانى : الحـــــرم المـــكى

نسبة إلى مكة المكرمة ، بلد الله الحرام ، ومستقر بيته الحرام ،زادها الله – تعالى– تشريفاً وتعظيماً .

وقد ورد فى مكة أسماء كثيرة تدل على عظيم مكانتها . وسموها وشرفها ، من هذه الأسماء : « مكة » قال – تعالى – :

{ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا } (٨) .

ومن هذه الأسماء « بكة » . قال – سبحانه وتعالى – :

{ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين } (٩) .

ومن هذه الأسماء « أم القرى » . قال – عز وجل – :

{ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير } (١٠) .

ومن هذه الأسماء « البلد الأمين » ، قال – تبارك وتعالى – :

{ والتين والزيتون ، وطور سنين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم } (١١) .

ولها غير ذلك من الأسماء كثير ، منها ما ورد فى القرآن المجيد ومنها ما ورد فى المعاجم وكتب التاريخ . وقد اشتهر من بينها كلها مكة ، وقد قيل سميت بذلك لأنها تمك من يظلم فيها ويلحد ، أى تهلكه ، وقيل لأنها تجتذب الناس إليها من شتى بقاع الأرض ، من قولهم :مك الفصيل ضرع أمه ، إذا امتصه بشدة فجذب كل ما فيه .

شبهت به مكة لإنها تجتذب الناس إليها من أنحاء الأرض ، كما يجتذب الفصيل اللبن من أنحاء الضرع .

وإنما اكتسبت مكة حرمتها وشرفها من كونها مقرا لبيت الله الحرام زاده الله تشريفا وتعظيما . فمن حرمة بيت الله الحرام حرمت مكة ، ومن شرفه شرفت ، ومن عظمه عظمت .

ومن حق بيت الله الحرام أن نخصه بالصفحات التالية من هذا المطلب .

* * *

بيت اللـــه الحـــرام

إن حديثنا عن بيت الله الحرام بين نبى الله الخليل ابراهيم – عليه السلام – وحفيده نبى الله الخاتم محمد – صلى الله عليه و سلم – يبدأ – طبعيا – بالحديث عن تاريخ ذلك البيت الذى شرفه الله – تعالى – وشرف بشرفه ما جاوره من بقاع ، وشملت بركاته ونفحاته كل من أمه وقصده طاعة وتعبدا لله رب العالمين ، بل عم خيره من كل بقاع الدنيا من آمن به بيتا له ، وعظمه وكرمه ورعى حرمته برعاية حرمه .

والحديث عن بيت الله الحرام يتفرع إلى جوانب عديدة كلها يفضى إلى ذلك البيت المعظم بسبب أو بأسباب . فهناك الحديث عن تاريخه وجودا ، وهناك الحديث عن تاريخه بناء ، وعدد تلك المرات التى شرفت يد البنائين بالعمل فيه ، وهناك الحديث عن مناسك التعبد حوله أو فريضة الحج ... إلى آخر تلك الجوانب التى لا ينقضى الحديث عنها . ولا ينتهى البحث حولها .

واختلاف الآراء حول تاريخ وجود البيت ، وعدد مرات بنائه أمر طبعى ، لا حرج فيه . فإن الأمر إذا كان ذا شأن شغل من الناس بقدر شأنه . وبيت الله الحرام لا يدانيه أمر فى عظم شأنه ، وسمو مكانته ، ورفعة قدره ، لذا فقد اشتغل الناس به بقدر مكانته فى أنفسهم ، أضف إلي ذلك أن الاشتغال ببيت الله الحرام ليس من باب إشباع الفضول كما فى كثير من الشئون الأخرى ، ولكن الاشتغال به عبادة ، والبحث حوله قربة ، والاهتمام بأمره مرضاة للرب – سبحانه وتعالى – مدفعة للشر والضر ، مجلبة للخير والبر .

لذلك جد الباحثون واجتهدوا حول هذه الأمور التى أشرنا إليها أو حول بعضها ، اداء للواجب دينا ، والتماسا للبركة والثواب ورضا الله – سبحانه وتعالى – .

ونحن هنا نتناول الحديث عن بيت الله الحرام وجودا ، وطرفا من الحديث عنه بناء وتطهيرا . والسؤال الذى يدور الحديث حول الإجابة عليه هو : متى وجد بيت الله الحرام ؟ لقد اختلفت الآراء حول تاريخ وجود بيت الله الحرام على آراء كثيرة نستطيع أن نسلكها فى اتجاهين اثنين ، متخطين ما بين ذلك من خلافات يسيرة .

الاتجاه الاول :

إن البيت كان موجودا قبل ابراهيم – عليه السلام – وسواء بنته الملائكة أو بناه آدم – عليه السلام – فذلك أمر لا يشغلنا الآن فيما انتدبنا أنفسنا إليه .

الاتجاه الثانى :

إن البيت لم يكن موجودا قبل إبراهيم – عليه السلام – وأن ابتداء وجوده كان ببناء الخليل إياه ، بأمر ربه – سبحانه وتعالى – .

هذان اتجاهان ذهب إلى كل منهما فريق من العلماء ، ولكل دليله فيما يرى ، وفهمه فيما يقرأ من الآثار المتصلة بالموضوع .

والحق – فيما نرى ونعتقد – إن البيت العتيق كان قبل إبراهيم – عليه السلام – ، وإن وجوده لم يبدأ ببناء الخليل إياه ، وإنما كان موجودا قبل ذلك .

والأدلة والبراهين على ذلك كثيرة ، وهى من الوضوح – فيما أرى – بحيث تدفع الاختلاف حولها ، وبحيث تجعل المرء يتساءل : كيف وقع الخلاف حول ذلك ؟ ولكنها مشيئة الله – جل وعلا – أن يظل الناس حول شئون البيت لا يغفلون عنه بحثا ، وجدا ، واجتهادا ، فيثابون بقدر نياتهم وعملهم .

قلنا إن الدلائل والبراهين قائمة على أن البيت كان موجودا قبل إبراهيم – عليه السلام – وأهم هذه الأدلة ما يلى :

(١) أن القرآن الكريم قد نص على أن البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضع للناس، يقول – سبحانه وتعالى – : { إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين } [١٢] . فالآية الكريمة تنص على أن البيت إنما وضع للناس ، وليس لقوم إبراهيم – عليه السلام – ومن بعدهم . والناس هنا يعم كل من كلف بالعبادة ، والتكليف بالعبادة لم يبدأ بإبراهيم ، وإنما بدأ بآدم – عليهما السلام – وبنيه من بعده حتى قيام الساعة . فلا وجه لتخصيص الناس بقوم إبراهيم – عليه السلام – ومن بعدهم دون السابقين ، فلا تخصيص إلا بمخصص ولا مخصص هنا ، كما هو واضح .

(٢) أن الله – سبحانه وتعالى – قد كلف الناس بعبادته منذ آدم – عليه السلام – ، وإذا كان الله – تعالى – قد قدر لهم بيتا يضعه لهم للعبادة ، فالأقرب أن يكون ذلك مع ابتداء التكليف بالعبادة ، وبعيد أن يكون الناس يعبدون الله قبل إبراهيم بدون البيت ، ثم تبدأ بيوت الله به – عليه السلام – وفى ذلك ما فيه من حرمان الناس – قبل إبراهيم – من بركة البيت وخيره .

(٣) ذهب جمهور العلماء إلى أن البيت الحرام فى الأرض يسامت البيت المعمور فى السماء ، وعمارة البيت المعمور فى السماء إنما هى بطواف الملائكة حوله ، وعمارة البيت الحرام فى الأرض إنما هى بطواف الناس حوله ، فقارب أن يكون وجود البيت الحرام فى الأرض مع بداية التكليف وحتى لا يحرم عباد الله فى

الأرض من ذلك الفضل والشرف الذى يناله عباد الله فى السماء .

(٤) ورأس الأمر كله القرآن العظيم . فقد جاء فى القرآن المجيد قوله – تعالى – حكاية عن إبراهيم – عليه السلام – وهو يدعو ربه قائلا : { رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم } [١٣] وقد دعا إبراهيم بتلك الدعوات بعد أن ترك هاجر وابنها فى تلك البقعة حيث أمره الله – تعالى – أن يضعهما ، وقفل راجعا إلى الشام . ولم يكن إبراهيم – عليه السلام – قد أقام البيت بعد ، ولم يكن هناك من بناء يمكن يسند إليه قوله – عليه السلام – : { عند بيتك المحرم } ، فالبيت كان موجودا فى مكانه قبل أن يذهب إبراهيم – عليه السلام – علم مكانه وشأنه بعلم من الله سبحانه .

يقول الإمام أبوالسعود محمد بن محمد العمادى فى تفسيره عند الآية السالفة : (وتسميته إذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وإنما كان نشزا مثل الربية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليس من اعتبار ما سيؤول إليه الأمر من بنائه – عليه السلام – فإنه ينزع إلى اعتبار الحرمة أيضا كذلك ، وإنما هى باعتبار ما كان من قبل ، فإن تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه ، وإنما الاختلاف فى كمية عدده) [١٤]

* * *

إبراهيم – عليه السلام – والبيت

تبدأ صلة إبراهيم – عليه السلام – بالبيت الحرام بتلك الرحلة المعروفة المشهورة . رحلة الخليل – عليه السلام – من الشام إلى تلك البقعة الطاهرة الحرام . والتى قام بها – عليه السلام – تنفيذا لأمر ربه حين أمره بأن يأخذ زوجه هاجر وابنه منها اسماعيل – عليه السلام – ويضعهما فى تلك البقعة ثم يتركهما فى رعاية الله وعنايته .

ولم تكن تلك هى الزيارة الوحيدة التى قام بها ابراهيم – عليه السلام – إلى ذلك المكان الطاهر الحرام ، ولكن الخليل قام بزيارات عديدة إلى تلك البقاع الطاهرة ، وبالجمع بين آيات الله فى ذلك الشأن مع الصحيح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم – نستطيع أن نرتب زيارات الخليل – عليه السلام – إلى البقاع الطاهرة الحرام على النحو التالى :

الزيارة الأولى :

وفيها أمر الله – سبحانه وتعالى – الخليل – عليه السلام – أن يحمل أم إسماعيل

وابنها عليه السلام ويذهب بهما إلى البقعة الطاهرة ويضعهما هناك ثم يتركهما بجوار البيت الحرام الذى لم يكن فى ذلك الوقت سوى ربوة ناهدة على ما حولها .

روى البخارى – رضى الله عنه – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال :

(أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتخفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق الزمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا ...) الحديث [١٥] . فهذه الزيارة الأولى ، وفيها ذهب فيها إبراهيم إلى مكان البيت فوضع تركته بجواره ، فى حمى الله – سبحانه وتعالى – ثم رجع إلى الشام من حيث أتى .

الزيارة الثانية :

وقد قام بها الخليل –عليه السلام – تلبية لأمر ربه – سبحانه وتعالى – الذى أمره بذبح إسماعيل عليه السلام فانطلق إبراهيم إلى مكة حيث ابنه فألقى إليه الأمر فأسلم الابن نفسه إلى الله ففداه الله . يقول الله تعالى : { فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين } [١٦] .

الزيارة الثالثة :

وفى هذه الزيارة أراد الخليل – عليه السلام – أن يطمئن على تركته فانطلق إلى مكة . يروى البخارى فى الحديث السابق : « فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته فقالت خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ نحن فى ضيق وشدة وشكت إليه ، قال لها : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه } [١٧] .

الزيارة الرابعة :

وفيها عاد إبراهيم – عليه السلام – إلى مكة ليطمئن على إسماعيل وأهله . روى ابن عباس رضى الله عنهما – قال : « فلبث عنهم إبراهيم ما شاء ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها فقالت : خرج يبتغى لنا . فقال : كيف أنتم ، وسألها عن عيشتهم وهيئتهم . فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل .. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه » [١٨] .

الزيارة الخامسة :

وقد قام بها الخليل – عليه السلام – تلبية لأمر الله تعالى – حيث أمره ربه أن يبنى البيت هو وابنه إسماعيل – عليه السلام – يقول سبحانه وتعالى : { وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود } (١٩) . وفى الحديث سالف الذكر : (ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرنى ، قال فافعل ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : نعم قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا . وأشار إلى أكمه مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء فجاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه . وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (٢٠) .

هذه هى الزيارات الثابتة لإبراهيم – عليه السلام – ، من مكة إلى بيت الله الحرام قبل أن يجدد بناءه ويرفع قواعده ومعه ابنه اسماعيل – عليه السلام – ، ويجب أن ننبه هنا إلى أننا نرتب الزيارات التى ثبتت بالكتاب أو السنة أو بهما معا ، وفق ما ورد فى الشرع . وهذا لا يعنى أن الخليل – عليه السلام – لم تكن له زيارات أخرى بعد ذلك إلى مكة بلد الله الحرام ، وإلى الكعبة بيت الله الحرام . بل إنه من المرجح لدينا إن الخليل – عليه السلام – قد زار مكة بعد ذلك مرة أو مرات بعدد ما بقى له من سنوات عمره . وبقدر ما أمكنته ظروفه من تحقيق تلك الزيارات فى موسم الحج ومناسكه ، إذ لا يعقل أن يؤذن فى الناس بالحج ، ثم لا يستجيب هو – عليه السلام – لاذانه وتعليم الناس مناسكه وفرائضه ما دام لا يقع تحت طائلة عذر ملجئ .

* * *

<u>إبراهيم – عليه السلام – يرفع القواعد من البيت :</u>

مر بنا أن الله تعالى أمر إبراهيم الخليل – عليه السلام – ببناء البيت ، وتطهيره من الشرك والأوثان وكل عبادة تكون لغير الله أو يكون فيها مع الله شريك . يقول سبحانه : { وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع

السجود] [٢١] .

ويقول تعالى : { وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق] [٢٢] .

فالآيات الكريمة توضح أن الله - جل وعلا - قد وكل إلى إبراهيم - عليه السلام - فيما يتعلق بشأن البيت الحرام أمورا ثلاثة :

الأول : إقامة البيت ، فالبيت - كما سبق أن بينا - كان أثرا من بعد عين . قد هدمته السيول أو الطوفان أو حدثان الزمان ، وكان رابية ناهدة على ما حولها فعهد الله - تعالى - إلى إبراهيم أن يقيمه على قواعده التى هداه الله - تعالى - إليها . فأقام إبراهيم القواعد من البيت يعينه فى ذلك ابنه إسماعيل - عليهما السلام - على ما هو معروف ، وما بيناه قبل ذلك .

الثانى : تطهير البيت من الشرك والوثنية وقد تكرر الأمر . بتطهير البيت موجها إلى إبراهيم - عليه السلام - وحده مرة ، وإلى إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - مرة أخرى .

الثالث : الأذان فى الناس بالحج ، أى إعلام الناس بأن الله قد فرض عليهم الحج إلى بيته الحرام . وقد ورد أن الله تعالى لما أمر إبراهيم - عليه السلام - بأن يؤذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم وإلى أى مدى يبلغ صوتى ، فأوحى الله - تعالى - إليه ، أن عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فلما أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج أوصل الله تعالى صوته إلى كل جنبات الدنيا فلم يبق حى ولا جماد إلا وقد سمع أذان الخليل - عليه السلام - .

هذه هى المهام الجسام التى وكل الله - تعالى - إلى الخليل - عليه السلام - القيام بها بالنسبة إلى بيته الحرام . وقد قام الخليل - عليه السلام - بما وكله الله إليه وأمره به . وليس من شك فى أن هذه المهام الثلاث هى على أعظم قدر من الأهمية والخطر ، ولذا لم يكلها الله - تعالى - إلى إبراهيم - عليه السلام - إلا بعد أن اختبره فوجده جديرا بتلك المهام العظام . يقول الله تعالى : { وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود] [٢٣] . فالأمر بإقامة البيت وتطهيره والأذان فى الناس بالحج إنما أتى

بعد الابتلاء والاختبار . لكن الذى يلفت النظر ، ويستولى على الفكر ، تلك الدعوات التى دعا بها إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – وهما يبنيان البيت أو يرفعان القواعد منه ، وتلك الدعوات التى نطق بها النبيان العظيمان إنما هى دعوات ملهمة . لا تخرج إلا من فم نبى ينظر بنور الله إلى مستقبل يفصله عنه آلاف السنين .

فما تلك الدعوات ؟ وما شأنها فى موضوعنا هذا ؟

إن حديثنا عن تلك الدعوات الخالدات هى مدخلنا إلى الحديث عن رسول الله محمد خاتم الرسل حفيد إبراهيم وإسماعيل عليهم صلوات الله وسلامه .

* * *

محمد – صلى الله عليه وسلم – دعوة إبراهيم :

لنستمع إلى تلك الدعوات الطيبات من خليل الله إبراهيم وابنه ذبيح الله إسماعيل – عليهما السلام – يقول الله تعالى : { وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم }(٢٤) .

إن هذه الدعوات تلفت النظر إلى معنى دقيق وجليل ، فإبراهيم –عليه السلام –وهو يقيم البيت ، ولم يكتمل بناء البيت بعد ، ولم يفرغ هو من بنائه ، شغل نفسه ، وأهم قلبه مآل البيت من بعده ، وما سيكون عليه حال بيت الله الحرام عبر السنين الطوال ، من خلال الأجيال المتعاقبة من أبناء هذه الأمة التى شاء الله – تعالى – أن ينيلها شرف حراسة البيت ورعايته والقيام على شأنه . وكأنه – عليه السلام – نظر بنور النبوة من خلال آلاف السنين ، فاخترق سدف المستقبل ، فرأى ما سيؤول إليه أمر البيت من بعده من وقوعه فى أسار المشركين الوثنيين الصنميين ، واتخاذهم إياه بيتا لأصنامهم وأوثانهم ، فابتهل إلى الله – تعالى – أن ينجى ذريته من الضلال بأن يجعلها أمة مسلمة ، وأن ينجى بيته الحرام من أن تدنسه ضلالات الشرك والوثنية وذلك بأن يبين للناس مناسكهم التى منها حفظ حرمة البيت ، وإخلاص العبادة فيه لله رب العالمين .

وهذا هما الدعـــــاءان :

[ومن ذريتنا أمة مسلمة لك] [وأرنا مناسكنا] .

ولكن إجابة هذا الدعاء لا تكون إلا من خلال إجابة دعـــاء ثالث هو :
[ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم]
فإبراهيم – عليه السلام – طلب من ربه أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، تعرف دينها ومناسكها وذلك عن طريق رسول يبعث إلى هذه الأمة هو منها وليس غريبا عنها .
هذا الرسول هو محمد بن عبد الله ، خاتم الرسل – صلى الله عليه وسلم – وتلك الأمة هى أمته التى من الله عليها بذلك فقال – سبحانه – :
{ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم } [٢٥] . وإذا كان محمد – صلى الله عليه وسلم – هو دعوة أبيه إبراهيم – عليه السلام – فماذا كان شأنه مع البيت ؟ .

* * *

محمد – صلى الله عليه وسلم – والبيت الحرام :

إن صلة رسول الله الخاتم محمد – صلى الصلاة والسلام – بالبيت الحرام تقوم على تلك الأصول الثلاثة التى رأيناها قبل ذلك لدى الخليل – عليه السلام – وهى :
(١) إقامة البيت وبناؤه .
(٢) تطهير البيت من الشرك والوثنية .
(٣) إعلام الناس بفريضة الحج ، وتعريفهم مناسكها .
وسنقف مع كل واحدة من هذه الثلاثة وقفة وجيزة تزيدنا وضوحا فى شأن محمد – صلى الله عليه وسلم – فيها .

أولا : محمد – عليه الصلاة والسلام – وبناء البيت :

اتفق أن قريشاً نقضت البيت وأقامته بناء جديدا . وقد دعاهم إلى نقض البيت وبنائه من جديد أمور يذكرها المؤرخون منها :
١– أن امرأة كانت تجمر الكعبة – أى تبخرها – فطار من مجمرها شرارة نار فأمسكت بكسوة الكعبة فأحرقتها واحترقت الكعبة ووهى بناؤها .
٢– أن السيل قد دخلها فصدع بنيانها بعد ذلك الوهن الذى كان من الحريق المذكور .
٣– أن نفرا دخلوا إلى الكعبة فسرقوا حليها وكنوزها التى كانت قريش تضعها فيها . فأرادت قريش أن تبنى الكعبة وأن ترفع بابها عن مستوى الأرض حتى لا يدخلها إلا من شاءوا .

فلما أجمعوا أمرهم على نقض الكعبة وبنائها من جديد قال ناصحهم يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا . لا تدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا . ولا مظلمة أحد من الناس . ثم إن قريشا تجزأت الكعبة أى قسمت بناء الكعبة فيما بين قبائلها فاختصت كل قبيلة أو أكثر بجانب من جوانب الكعبة يقومون ببنائه ، وذلك لما يرون فى ذلك من شرف لا يدانيه شرف يبقى على الدهر كله . ولما عزموا أمروا بالحجارة أن تجمع . وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحمل الحجارة وينقلها معهم .

روى الشيخان عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال :« لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والعباس – رضى الله عنه – ينقلان الحجارة فقال العباس للنبى – صلى الله عليه وسلم – اجعل ازارك على رقبتك يقيك الحجارة – وكان ذلك قبل أن يبعث – فخر إلى الأرض فطمحت عيناه إلى السماء فقال : ازارى ازارى فشده عليه . وفى رواية : فسقط مغشيا عليه ، فلم ير بعد ذلك عريانا »(٢٦) .

ويروى « أنه كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحمل الحجارة من أجياد وعليه نمرة ، فضاقت عليه النمرة فذهب يضعها على عاتقه ، فبدت عورته من صغر النمرة ، فنودى : يا محمد خمر عورتك ، فلم ير عريانا بعد ذلك أبدا »(٢٧) .

وأخذت قريش فى بناء الكعبة حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه ليكون لها شرف وضعه فى مكانه دون القبائل الأخرى ، حتى أعدوا للقتال عدته ، وكادت الحرب تقع بينهم . وظلوا كذلك أربع ليال أو خمسا ، ثم اتفقوا على أن يحتكموا إلى أول داخل عليهم ، فكان أول داخل عليهم هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما رأوه استبشروا وقالوا : هذا الأمين ، رضيناه حكما . فلما أخبروه الخبر قال – عليه الصلاة والسلام – هلم إلى ثوبا فلما أتى به نشره وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيه بيده ، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطراف الثوب . فصنعوا ورفعوه جميعاً ، حتى إذا بلغوا به موضعه رفعه – صلى الله عليه وسلم – بيده الشريفة ووضعه مكانه . وانقلب الجميع راضيا

هذا ملخص وقائع الأمر الأول وهو بناء البيت الحرام . شارك فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بنقل الحجارة ثم قام بالعمل الجليل الذى وقى الأمة شر القتال والدمار ، وذلك بالحكم بين القبائل المتخاصمة حول من يضع الحجر مكانه ، ثم كانت خاتمة الأمر كله أن وضع الحجر فى مكانه بيده الشريفة ، صلى الله عليه

وسلم .

* * *

ثانيا : محمد – صلى الله عليه وسلم – وتطهير البيت :

يروى التاريخ أن قريشا جعلت من بيت الله الحرام بيتا للأصنام فكانت الأصنام تحيط به من الخارج وتملأ جوفه من الداخل وتعلو سقفه من فوق . فصير المشركون بيت الله الحرام بيتا للأصنام . وظل بيت الله الحرام فى أسار الشرك والوثنية حتى أذن الله أن يطهره من ذلك الرجس من الأوثان فبعث محمدا – صلى الله عليه وسلم – فخاصمه قومه فهاجر إلى المدينة . ثم فتح الله عليه مكة ودخلها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واتجه إلى الكعبة لحينه وكانت الأصنام تحوطها وتملأ جوفها وسقفها ، قيل كان بها ستون وثلاثمائة صنما فأمر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فحطمت ، وكان صلى الله عليه وسلم يدفعها بعود فى يده قائلا : [جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا] فكانت الأصنام تقع على أدبارها . وطهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – البيت الحرام من الأوثان والأصنام والشرك . وجعله خالصا لوجه الله سبحانه .

* * *

ثالثا : محمد – صلى الله عليه وسلم – ينادى فى الناس بالحج :

قال تبارك وتعالى : {إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركة وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين } (٢٨) .

بهذه الآية الكريمة فرض الله الحج على رسوله وأمته . وقيل بل فرض الحج بالآية الكريمة : { وأتموا الحج والعمرة لله } (٢٩) والجمهور على الأول . ولما فرض الحج نادى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الناس بأن لله فرض عليهم الحج ، فأعلمهم فريضة الله – تعالى – عليهم ثم علمهم مناسكهم .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : « خطبنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : [يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا] (٣٠) .

وبعد أن بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأمته أن الله فرض عليهم الحج ، بين لهم مناسك الحج ، وخرج حاجاً على رأس المسلمين فى حجة الوداع فقال للناس خذوا عنى مناسككم ، فبين للناس مناسك الحج ، وبين لهم أمور دينهم فى خطبة من أجمع خطبه – عليه الصلاة والسلام – وهى خطبته فى حجة الوداع .

من هذا العرض الموجز الذى قدمناه حول بيت الله الحرام ، تبين لنا الصلة القوية الممتدة بين الجد خليل الله إبراهيم – عليه السلام – وحفيده خاتم النبيين محمد – – عليه الصلاة والسلام – تلك الصلة القوية التى اخترنا أن نبين عن جانبها المتصل ببيت الله الحرام . والجانب المتصل بهذا البيت العتيق ينحصر فى عمارته وعمارة البيت تقوم على أركان ثلاثة بيناها :

تقوم على بنائه ، وعلى تطهيره ، وعلى بيان مناسك العبادة فيه أو حوله . وقد اجتمع النبيان العظيمان على ذلك . ولكى تتحقق عمارة البيت بأركانها الثلاثة لابد أن يكون البيت مثابة للناس وأمنا .

أما المثابة فتعنى أن الناس يذهبون إلى البيت ثم يعودون إلى ديارهم ثم يعودون إليه مرة ومرات ، وهم لا يقضون وطرهم . بل يحبون العودة إليه دائما . وحتى يتحقق للناس أن يذهبوا إلى البيت ثم يعودوا مرة ومرات . جعل الله البيت أمنا . فهو أمان لمن استعاذ به . حمى لمن احتمى به وكانوا فى الجاهلية إذا لقى الرجل قاتل أبيه فى الحرم لم يعرض ولم يهجه . حتى يخرج منه . ولذا قال تعالى :

{ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم }

ومن عجب أن الأمان الذى ضرب الله أطنابه على البيت وما حوله من الحرم ، لم يقتصر على الإنسان بل تعداه إلى كل شئ فصار كل شئ فى جواره آمنا .

الإنسان والحيوان والنبات فالوجود كله آمن فى جواره مطمئن فى أساره يقول – صلى الله عليه وسلم – [إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد من قبل ، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاه] (٣١) .

فقد أمن الله فيه الإنسان فلا يعتدى عليه ولو كان قاتلا مطلوبا بثأر ، وأمن الله فيه الحيوان فى الحرم فلا يحل صيده ولا ينفر ، وأمن الله فيه النبات والشجر فلا يقطع شجرة ولا يعضد شوكه .

حفظ الله البيت الحرام وزاده تشريفا وتعظيما .

* * *

المطلب الثـالث : الحـــرم المـدنى

نسبة إلى مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شرفها الله – تعالى – وحفظها .

واسم المدينة عام ، ويطلق على المجتمع الكبير ، فى مقابل المجتمع الصغير . والمدينة بهذا المعنى تعادل كلمة « المصر » و« الحاضرة » وكلها تعنى المجتمع الكبير فى مقابل المجتمعات الصغيرة .

وكلمة مدينة مشتقة من (مدن) بفتحتين ومعناها : أقام ، يقال مدن بالمكان أى أقام به . ومدينة على وزن فعيلة . وتجمع على « مدائن » و« مدن » بضم الأول والثانى ، أو بضم الأول وإسكان الثانى .

فكلمة مدينة إسم للمكان يقطنه المجتمع الكبير من الناس ، ولكنها إذا أطلقت معرفة بالألف واللام انصرفت إلى مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شرفها الله – تعالى – ، فقد غلب ذلك الاسم عليها تشريفا وتعظيما وتكريما .

وقد ورد فى مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسماء كثيرة أوصلها بعضهم إلى تسعة وعشرين اسما . من هذه الأسماء « يثرب » .

قال تعالى :

{ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا } (٣٢) .

ومن هذه الأسماء المدينة . قال عز وجل :

{ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون } (٣٣) .

ومن هذه الأسماء : طيبة ، والمباركة ، والمسلمة ، والناجية ، والعاصمة ، إلى آخر تلك الأسماء التى وردت فى المعاجم وكتب السير .

وقد بدأت صلة الإسلام بالمدينة ببيعة العقبة الأولى ، حيث التقى اثنا عشر رجلا من المدينة برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبايعوه على الإسلام ، ثم فى السنة التالية كانت بيعة العقبة الثانية ، حيث التقى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الإسلام ، ثم كانت هجرة أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم – إلى المدينة تلك الهجرة التى توجت بهجرة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – إلى المدينة واتخاذها سكنا ومقرا ، حيث نشأت الدولة المسلمة على أرض المدينة المنورة .

ومن المدينة انتشر الإسلام فى كل بقاع الدنيا ، وانساح شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وكان يخرج من المدينة جند الله فى غزوات بعدها غزوات يقضون على ظلام الجهل والكفر ، وينشرون نور العلم والإيمان ، حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وصارت المدينة عاصمة الدولة المسلمة وحاضرتها .

هذه مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مهجر الرسول ومثواه . حرمها رسول الله – عليه الصلاة والسلام – كما حرم الخليل إبراهيم – عليه السلام – مكة . ودعا الرسول للمدينة بمثل ما دعا الخليل إبراهيم لمكة وزاد على ذلك مثله .

روى عن مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإذا أخذه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ، ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر .

وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك – رضى الله عنهم – أن رسول الله طلع إلى أحد فقال : (هذا جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرم مكة ، وأنا أحرم ما بين لابتيها) .

وقد نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يخرج المسلم من المدينة إلى غيرها راغبا عن المدينة زاهدا فيها لضيق أو شدة . روى الإمام مسلم عن ابن عمر – رضى الله عنهم – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : (لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة) يعنى المدينة [٣٤] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة – رضى الله عنهم – أنه كان يقول : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (ما بين لابتيها حرام) [٣٥] .

وهذا قليل من الكثير والكثير الذى ورد فى شأن المدينة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى تحريمها ، وفضلها ، وشرفها ، وفضل سكناها ، والنهى عن الخروج منها رغبة عنها .

حفظ الله مدينة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وزادها تشريفا وتعظيما ، وحماها

من السوء ، وأهلك من أراد بها السوء .

* * *

(١) سورة الحج . الآية : ٣٠
(٢) سورة النمل . الآية : ٩١
(٣) سورة التوبة . الآية : ٣٦
(٤) سورة الإسراء . الآية : ٣٢
(٥) سورة الإسراء . الآية : ٣٣
(٦) سورة النور . الآية : ٢٣
(٧) سورة النساء . الآية : ٢٩
(٨) سورة الفتح . الآية : ٢٤
(٩) سورة آل عمران . الآية : ٩٦
(١٠) سورة الشورى . الآية : ٧
(١١) سورة التين . الآيات : ١ - ٤
(١٢) سورة آل عمران . الآية : ٩٦
(١٣) سورة إبراهيم - عليه السلام - الآية : ٣٧
(١٤) تفسير أبو السعود . جـ ٣ - صـ ١٣١
(١٥) صحيح البخارى .
(١٦) سورة الصافات . الآيتان : ١٠١ - ١٠٢
(١٧) صحيح البخارى ، الحديث السابق .
(١٨) الحديث السابق .
(١٩) سورة البقرة . الآية : ١٢٥
(٢٠) سورة البقرة . الآية : ١٢٧
(٢١) سورة البقرة . الآية : ١٢٥
(٢٢) سورة الحج . الآيتان : ٢٦ - ٢٧
(٢٣) سورة البقرة . الآيتان : ١٢٤ - ١٢٥
(٢٤) سورة البقرة . الآيات : ١٢٧ - ١٢٩
(٢٥) سورة التوبة . الآية : ١٢٨
(٢٦) صحيح البخارى - كتاب الحج
(٢٧) دلائل النبوة - البيهقى .
(٢٨) سورة آل عمران . الآيتان : ٩٦ - ٩٧

(٢٩) سورة البقرة . الآية : ١٩٦
(٣٠) مسند الإمام أحمد – رضى الله عنه – .
(٣١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم .
(٣٢) سورة الأحزاب . الآية ١٢
(٣٣) سورة المنافقون . الآية : ٨
(٣٤) ، (٣٥) صحيح مسلم . كتاب الحج « باب فضل المدينة » .

المراجع

كتب التفاسير .
كتب الحديث .
تفسير آيات الأحكام .
تاريخ التشريع .
أسباب النزول للواحدى .
دلائل النبوة للبيهقى .
طبقات ابن سعد .
سيرة ابن كثير .
سيرة ابن هشام .
أنساب الأشراف .
سبل الهدى والرشاد .

* * *